الفصل الرابع

إعجاز القرآن

١ - الصحة .
٢ - الإعجاز اللُّغوى والإخبار بالغيب .
٣ - الإخبار بالغيب .
٤ - الإحاطة والدقة والصلاحية .
٥ - أثر القرآن فى العالَم .
٦ - الحقائق العلمية .
٧ - فضله ووجوب العناية به .

١ - الصحة

لا يجادل مؤمن بالإسلام ولا غير مؤمن به - من المحققين - فى أن القرآن الكريم هو أصح الكتب السماوية الإلٰهية الموجودة فى الأرض الآن .. وقد تواترت القرائن على ذلك بصور شتّى :

منها - المصاحف القديمة الموجودة حالياً وبعضها يرجع إلى القرن الأول ثم تتابعها عبر القرون - وبأيدى كتّاب وناسخين متعددين من شتّى الألوان والجنسيات فلم يختلف منها سطر ولا جملة ولا حرف - كلها بنفس الضبط والدقة والألفاظ .

ومن ذلك - حفظ الحفّاظ فى الصدور - فبالرغم من اتساع رُقعة الإسلام وانتشاره فى كافة أرجاء الأرض من أقصى الصين إلى أوروبا وإفريقيا والأمريكتين عرضاً ، ومن القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى طولاً - فلا تكاد تلمس فى تلاوة أحد من هذه الملايين ما يختلف عن تلاوة أخيه فى شىء يغير المعنى أو يميل به - وبعضهم يحفظ القرآن عبادة ولا يفهم له معنى ، لكنه يعتز به ويغار عليه ولا يمكنك أن تقنعه بتغيير شىء منه .

ومن ذلك - الاستقراء التاريخى - ودراسة ما كُتبَ من آياته وما كُتبَ عنه لدى غير المسلمين الذين عاصروا دولة الإسلام فى القديم والحديث - وكذلك النقوش الباقية على تطاول الزمن .

كل ذلك يشهد للقرآن بالصحة والسلامة من التحريف - وصدق اللّه إذ يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

ولا يؤثر فى تلك الحقائق الواضحة ما يثيره المستشرقون وأعداء الإسلام من شبهات تتصل أحياناً بعلم القراءات وأحياناً بتاريخ التدوين فهى من الغبار الذى لا يخفى ضوء الشمس .

* * *

(١) الحجر : ٩

٢ - الإعجاز اللُّغوى

لقد كان القرآن مُعْجزاً بألفاظه ومعانيه . فقد جاء رجل إلى النبى ﷺ واستمع إلى تلاوته فى قول اللّه تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (١) فخرَّ ساجداً (وكان مشركاً) . وقال : « واللّه ما يقول هذا بشر » .

وقد حدث عندما كان رسول اللّه ﷺ يتلو من سورة النجم قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٢) فسجد المشركون عن غير وعى لما بهرهم من بلاغة القرآن وإعجازه .

حكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية . فقال لها : قاتلك اللّه ما أفصحك !! فقالت : أو فصاحة بعد قول اللّه تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

قالت : فجمع اللّه فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين وخبرين ، كل هذا معنى قوله ﷺ : « ما من نبى من الأنبياء إلا وأُوتِىَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحىَ إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . وهو بهذا يشير إلى أن المعجزة متى كانت هى نفس الوحى فى الموضوع وقوة الدلالة كان المصدِّقون لها أكثر على مر العصور .

وقد أُلِفَتْ عشرات الكتب فى إعجاز القرآن للباقلانى وعبد القاهر الجرجانى ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، فليرجع إليها مَن شاء .

* * *

(١) الزمر : ٦٧ (٢) النجم : ٥٧ - ٦٢ (٣) القصص : ٧

٣ - الإخبار بالغيب

ولقد أخبر القرآن الكريم بطائفة كبيرة من المغيَّبات ثم وقعت بعد زمان الإخبار بها على الوجه الذى حدَّده القرآن الكريم . من ذلك قوله تعالى :

١ - ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (١) .

كان نزول هذه الآية قبل صلح الحديبية على رؤيا رآها النبى ﷺ وأخبر أصحابه بها - ولما هُمَّ رسول الله بعقد الصلح ، غضب بعض المسلمين وقالوا : يا رسول الله ؛ ألم تخبرنا أننا سندخل مكة آمنين ؟ قال : نعم .. ولكنى لم أقل متى يكون ذلك ، ولا أعلمه . ثم كان غزوة الفتح وتحقيق الآية بعد ذلك بقليل .

٢ - وفى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) فقد نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام ومَن والاها من أرض الروم . وحاصر هرقل فى القسطنطينية ، وكان المشركون يحبون انتصار فارس لأنهم أصحاب أوثان مثلهم . وكان المسلمون يحبون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب .

فذكر أبو بكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لمشركى قريش فقالوا : اجعل لنا أجلاً فإن انتصر إخواننا (يعنى الفرس) فلنا كذا ، وإن انتصر الروم كان لكم كذا ، فأجَّلَ أبو بكر لهم خمس سنين فقال له الرسول ﷺ : « ألا جعلتها إلى دون العشر » ؟ . فانتصر الروم على الفرس بعد سبع سنين أى بعد غزوة بدر بقليل .

---

(١) الفتح : ٢٧ (٢) الروم : ١ - ٥

٣ - وعن أُبَيّ بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة آوتهم الأنصار ورمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : أتظنون أنّا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

ومعلوم أن الله تعالى استخلف المؤمنين فى الأرض وأغناهم وأمّنهم حتى أقاموا دولة الإسلام .

وهناك مئات الأمثلة من الآيات على المعجزات القرآنية فليرجع إليها مَن شاء .

* * *

٤ - الإحاطة والدقة والصلاحية

قال الله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ (٢) والواقع أن القرآن الكريم جاء شاملاً للمسائل الرئيسية الضرورية فى حياة البشر جميعاً - ما فُرِّطَ فى شىء منها ولا تُرِكَ للعقول والاجتهادات الآدمية إلا أن تقول فى الفروع والأشياء التى تناسب زمناً معيناً أو مكاناً معيناً ، فالدين الإسلامى إذن ثابت فى أصوله متطوِّر فى فروعه ، ومعنى هذا أنه لا يحق لأحد أن يعدل ما جاء به نص صريح من الكتاب أو السُنّة المطهرة .

وأثبتت التجارب التى تمت عبر مئات السنين أنه لم يتأت للإنسانية عهود عدل وثراء وطمأنينة كتلك التى كانت لها يوم سيادة أحكام الإسلام .

---

(١) النور : ٥٥ (٢) الأنعام : ٣٨

قالوا : إن عامل عمر بن عبد العزيز كتب إليه : إنى لم أجد فى المسلمين مَن يستحق الزكاة - أغناهم اللّه - فماذا أفعل ؟ فقال له : « فرِّقها فى أهل الذِّمة » .. أى من غير المسلمين .

وليس المال وحده هو مقياس سعادة الأمم ، كلا ، ولكنه الأمن والرضا والصحة والسعادة والنمو الحضارى - كل ذلك قد كان متلازماً مع سيادة التشريع الإسلامى والدولة الإسلامية .

والعكس صحيح - فما ترى أمة من أمم الإسلام أصيبت بالتدهور والانتكاس إلا عندما رفضت هدى اللّه أو جعلته وراء ظهرها .

وصدق اللّه إذ يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) الأعراف : ٩٦ (٢) الأعراف : ١٥٧ (٣) الأعراف : ١٨١

٥ - أثر القرآن فى العالَم

هذا الكتاب المبين هو معجزة الإسلام الكبرى .. تركيبه عجيب .. ومعانيه دقيقة وأخباره صادقة .. أخبر عن الماضى البعيد فلم يعارضه شىء ، وأخبر عن الحاضر فى وقته فكان خير نظام وخير أدب وخير تشريع للدولة .. وأخبر عن المستقبل والغيب ، فتحقق ما قاله بعد نزوله بمئات السنين ، وطابق أحدث المخترعات الجديدة ، ولا زالت فيه أعاجيب لم يصل إليها العلم الحديث ، والذين آمنوا بدين الإسلام تأثروا بالقرآن حيث إنه دستور حياتهم ، فأصبحت تعاليمه سارية على نصف سكان الأرض لمدة قرون طويلة هم وأولادهم ومَن جاء بعدهم ، فهو الذى كوَّن لنا العادات التى نسير عليها ، وهو الذى حفظ اللُّغة العربية من الضياع ، وبقيت مفهومة فى جزء كبير من العالَم ، فلم تذهب معالمها بمرور الزمن كما تشعبت اللُّغات الأخرى (كاللاتينية مثلاً فى أوروبا إذ صارت لغات كثيرة لا يفهم بعضها بعضاً) وهو الذى رسم خطوط الحضارة للعرب ، ثم نقلتها عنهم الأمم الأخرى .. فهو بحق أستاذ البشر جميعاً . المؤمن به منهم وغير المؤمن به .

ومع أن المدنية الحديثة لم تعد تخضع للدين ، إلا أن أثر القرآن لا يزال هو أقوى شىء فى أمن الناس ومعاملاتهم ، كما أنه كان كثير الأثر فى تكوين تلك المدنية ولولاه لتغيَّر وجه الدنيا وسائر شئون حياة الناس سواء فى بلاد الإسلام أم فى غيرها من البلاد .

* * *

٦ - الحقائق العلمية

١ - فى قول الله عز وجل: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ (١) إن الإخبار بأن الصعود فى السماء يسبب ضيق الصدر لانقطاع

(١) الأنعام : ١٢٥

الهواء فى طبقات الجو العليا أمر لم يكن العرب يعرفونه ولا يعرفه أحد من البشر فى زمن تنزيل القرآن ولم يُكْتَشف إلا فى هذه العصور الأخيرة بعد اختراع الطيران العالى .

٢ - قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (١) . هذا التحديد للماء البشرى ومكان تخلقه أمر لم يكن أحد يعلمه عند نزول القرآن وإنما عُرِفَ مؤخراً .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) لم يتوصل الناس إلى أن الذرَّة هى أصغر شىء فى الوجود إلا فى هذه العصور أيضاً . ثم الاهتداء إلى أن هناك ما هو أصغر من الذرَّة - وهى أجزاؤها النزرة وما يدور فى مداراتها .

٤ - وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (٣) . والحُبُك هى المسارات والمدارات التى تدور فيها الكواكب - لم يكن أحد ليحيط علماً بذلك قبل اختراع المناظير الألكترونية البعيدة المدى .

والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحْصَى .

* * *

٧ - فضله ووجوب العناية به

عن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه » (رواه البخارى) ، وفى رواية : « إن أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه » .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « تعلَّموا القرآن فاقرأوه فإن مثل القرآن لمن تعلَّمه فقرأه وقام به - أى فى اللَّيل - كمثل جراب محشو مسكاً يفوح

---

(١) الطارق : ٥ - ٧ (٢) يونس : ٦١ (٣) الذاريات : ٧

ريحه فى كل مكان . ومثل مَن تعلمه فرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكىء على مسك » (رواه الترمذى وغيره) .

وكان أبو الدرداء يُعَلِّم القرآن كل يوم فى جامع دمشق من طلوع الشمس إلى الظهر - ويُقَسِّم المتعلمين عشرة عشرة ويُعيِّن لكل عشرة عَرِّيفاً يُعَلِّمهم القرآن وهو يُشرف على الجميع ويرجعون إليه إذا غلطوا فى شىء (كما ورد فى تاريخ ابن عساكر) .

وكان ابن مسعود يجلس فى مسجد الكوفة فَيُعَلِّم الناس قراءة القرآن حتى بلغ عدد الذين أخذوا عنه من الثقات مباشرة أو بواسطة ما يقرب من أربعة آلاف .

واستعمل النبى ﷺ عمرو بن حزم على نجران ليفقههم فى الدين ويُعَلِّمهم القرآن ويأخذ منهم الصدقات (كما ورد فى الاستيعاب) .

وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن قال : حدثنا مَن كان يُقْرِئنا من أصحاب النبى ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول اللّه عشر آيات فلا يأخذون العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه العشر من العلم والعمل - قالوا : فعلمنا العلم والعمل .

قال الحافظ السيوطى : تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشأون على الفطرة وتسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل أن تتمكن الأهواء منها وتُسَوِّدها بأكدار المعصية والضلال . وكان رسول اللّه ﷺ يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم أن يقرأوا القرآن بينهم ويُعَلِّموهم أمر الدين ويقيموا المؤذنين .

روى البيهقى فى « شعب الإيمان » أن النبى ﷺ قال : « يا أهل القرآن .. لا تتوسدوا القرآن (أى لا تناموا عنه) واتلوه حق تلاوته فى آناء اللّيل والنهار وأفشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تُفلحون ، ولا تعجلوا ثوابه (أى فى الدنيا) فإن له ثواباً (أى فى الآخرة) » .

وقد حدث فى العصور الأخيرة أن انخدع المسلمون بالحضارة الغربية الشرقية (وكلتاهما عدوة للإسلام) وعملوا بما يقول مستشاروها الوافدون فأهملوا شأن القرآن ، وأفقروا أهله وعزلوهم عن المجتمعات . وأقاموا فى مراكز المسئولية أناساً لا علاقة لهم بالقرآن ولا بالدين .

فكثر الغش والاختلاس ، وتدهورت الأخلاق ولا زالت أكثر البلاد فى محاولة لعلاج مشاكلها المتزايدة منذ مئات السنين .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

* * *

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠